مقدمة

لازمني هاجس البحث عن الخصائص المميزة للقصص القرآني، منذ وقت بعيد، فلم يتركني قط إلا وتملكني من جديد. كلما مرت بي قصة من القرآن، أشرعت قلمي متحفزا، ثم سرعان ما يذهب الحماس مع الكلمات الأولى، التي لا تنبئ بجديد غير ما قدم الآخرون. وكنت مقتنعا دائما بضرورة تغيير منهج النظر في القصة القرآنية، ليؤتى بنتائج جديدة- لن تكون هي الأخرى غير اجتهادات تنضاف إلى غيرها- ولما كان المنهج السائد في هذا الصدد هو المنهج الانطباعي، الذي يحاول القارئ من خلاله تفسير مشاعره تجاه القصة، أو تقديم انطباعاته حولها... فإن التغيير كان يعني إيجاد منهج مغاير في طبيعته للمنهج السائد، منهج لا يعطي انطباعات ذاتية خالصة، بل يحاول- قدر الإمكان- أن يقدم نتائج موضوعية، من خلال دراسة علمية صارمة.

وكان هذا كله ينطبق على المنهج البنيوي، منذ بداياته لدى الشكليين الروس Les Formalistes Russes الذين تحدثوا في شروط الأدبية، متسائلين عما يجعل من عمل ما عملا أدبيا.. ودارت من ثم دراسات كثيرة حول هذا المحور، لكنها لم تكتمل إلا في منتصف

الستينيات تقريبا مع الشكلية الجديدة، في فرنسا، كما يتجلى في مجموعة المقالات المهمة التي تضمنها العدد الثامن من المجلة الفرنسية Communication الذي كان صدوره عام ١٩٦٦ يمثل فتحا جديدا في مجال الدراسات الأدبية، وبعثا لروح الدعوة القديمة (لدى الشكليين) إلى الدراسة العلمية للأدب، ومنذ ذلك الحين بدأ العمل حثيثا من أجل الوصول إلى منهج علمي صارم، تخضع له الأعمال الأدبية. وتُرى من خلاله. ولكن الأدب بطبيعته يرفض الخضوع لصرامة منهج أيا كان؛ فكانت تلك الدراسات تمثل اجتهادات متناثرة، يجمع بينها الاهتمام الواضح بالبنية النصية للحكي.

وتستمر الاجتهادات، ولكنها هذه المرة تسعى نحو هدف آخر، هو التخلص من دعوى الصرامة العلمية التي سادت مع الشكلية الجديدة. ومع بداية السبعينيات ظهرت نتائج محققة في هذا الصدد، وبدأ الحديث عن الشعرية La poétique التي تهتم بجماليات الإبداع الأدبي، وتلغي الحد الفاصل بين البنية ومحتواها، وظهرت أعمال في تحليل الخطاب السردي، تُعنى بدراسة كيفية ظهور مكونات النص، وخصائصها المميزة، التي يتميز من خلالها عمل أدبي عن آخر. هذه الأعمال تجتمع لتكون ما يمكن أن نسميه بالمنهج السردى البنيوي؛

لاهتمامها بتحليل السرد من ناحية، ولقيامها على المنهج البنيوي من ناحية أخرى.

وقد ظهر لي أن هذا المنهج في صورته تلك، ونظرا لاعتماده الأساسي على وصف مكونات العمل الأدبي- هو منهج ملائم لتلك الرغبة الملحة في دراسة القصة القرآنية؛ خاصة وأنه لا يحادر أدبية العمل، مما يفتح المجال- المحدود بطبيعة الحال- أمام الانطباعات الذاتية للظهور... وكانت المرحلة التي استقر عليها المنهج لدى كل من جنت Genette وتودوروف Todorov من العوامل التي حفزتني إلى الشروع في هذا البحث.

وحين بدأت العمل، كان في ذهني خاطر واحد، هو: البحث عن الخصائص الأدبية الكامنة في النص القصصي القرآني، باعتباره نصا أدبيا فحسب؛ أحاسبه على هذا الأساس، وأشتغل عليه من هذا المنطلق. لكنني أبدا لم أفلح في هذا، ولم أُوَفَّق إليه؛ كانت هناك دائما منطقة مقدسة، عندما أصل إليها لاأستطيع التحرك؛ أتوقف، وأستغفر الله؛ وأعود لأبدأ من جديد.

وإذا كانت الشعرية تلغي الحد الفاصل بين النص ومحتواه. فإننا ١
في هذا البحث سنفصل بينهما في محاولة لفهم تلك الوحدة في العمل الأدبي، الذي نتناوله من خلال مظهريه: من حيث هو قصة. ومن حيث هو قول أو خطاب.

وهكذا ينقسم عملنا إلى قسمين أساسيين، ندرس في القسم الأول: القصة القرآنية بوصفها متنا حكائيا، بما يعني مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، وتمثل مادة أولية للحكاية الواقعة من أشخاص. وكان هذا يتطلب منا أن نعود إلى أوائل هذا القرن، لنراجع مع فلاديمير بروب منهجه في دراسة القصة. بدءًا من ضرورة الاعتماد على بنائها الداخلي، وانتهاء إلى ما كان يطمح في الوصول إليه، من وصف للحكاية وفق مكوناتها الأساسية، وعلاقة هذه المكونات ببعضها من ناحية، وأحدها بالآخر من ناحية أخرى. ودراسة المتن الحكائي تدور حول محورين: المحور الأول- الأحداث، التي احتفظنا لها بتسمية بروب (الوظائف) أي الأفعال التي تقوم بها الشخصيات. والمحور الثاني- الشخصيات التي تقوم بهذه الأحداث أو تؤدي هذه الوظائف، وما بينها من علاقات، ودوافع تدفعها إلى فعل ما تفعل.

وحين بدأنا في تجميع الوظائف وتفصيلها، ربما كان الهدف من وراء ذلك هو الوصول إلى تركيب نهائي تتماهى فيه تلك الوظائف لتنتج القصة الكاملة من خلال متتاليات الوظائف المختلفة. ولكن النتيجة كانت على غير ما توقعنا؛ فجاءت كل متتالية وظيفية تعطي قصة وحدها، يختلف هدفها عن غيرها من المتتاليات الوظيفية. فكان من المستحيل أن نعيد توزيع الوظائف، بعد أن نخرجها من سلاسلها، لنجعل منها قصة مكتملة كما كنا نتوقع، فإن الأمر هكذا يصبح ضربا من السذاجة ينأى بنا عن الموضوعية العلمية التي نبحث عنها؛ ومن ثم فقد اكتفينا في الفصل الأول من الكتاب بأن نحدد هدف كل متتالية وظيفية، معتبرين استقلاليتها، وكان اختلاف تلك الأهداف مؤشرا واضحا على تغير قصدية القصة من سياق إلى آخر.

وفي القسم الثاني، ندرس القصة القرآنية بوصفها خطابا، ذا شكل خاص يتوجه به سارد إلى مسرود له. وقد تناولنا هذه الخصوصية من خلال المنظومة الثلاثية: الزمن، والصيغة، والرؤية السردية. حيث تنشأ خصوصية الزمن من العلاقة بين زمن القصة وزمن الخطاب. وخصوصية الصيغة من طريقة التنوع الخطابي في النص. وخصوصية الرؤية السردية من طبيعة العلاقة بين المتكلم والنص.

وفي طول الدراسة كان عملنا منصبا على القصة القرآنية في شكلها الأساسي. كما وردت في الكتاب الكريم. أما ما سوى ذلك من تأويلات مختلفة حفلت بها كتب التفاسير. فلم يكن لنا به إلا علاقة الاستضاءة فحسب. وهذا لا يعني بحال أننا أهملنا تلك الكتب. بل على العكس كانت أمامنا دائما. خشية الوقوع في دائرة الخطأ التي حذرنا منها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، حيث قال فيما يرويه الترمذي: [مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ] وكان اعتمادنا في الأساس على: تفسير القرآن العظيم، وقصص الأنبياء لابن كثير. و لتفسير الكبير للرازي، وروح المعاني للألوسي. والكشاف للزمخشري. والظلال لسيد قطب. والأساس في التفسير لسعيد حوّى... ولكن طبيعة البحث كانت تفرض علينا دائما العودة إلى النص القرآني؛ فهو بحث في بنية القصة القرآنية. يبدأ منها وينتهي اليها؛ محاولا- قدر إمكانه- تقديم وصف دقيق لها. من خلال اعتماده على آليات البحث السردي.

وبعد فنرجو لهذا البحث أن يكون خالصا لله تعالى وحده. ونستغفره من زلة وقعنا فيها بغير قصد. ونتوب إليه.

أم القرى. ١٤٣٤هـ ، ٢٠١٣م د. محمد خضر